آراء وأفكار عن التصوف المنحرف

آراء وأفكار عن التصوف المنحرف

التصوف مصطلح اختلف الناس حوله، وعلينا أن نسميه التربية الروحية القرآنية، ونترك هذه التسمية جانباً لندرك أن التربية الروحية القرآنية فيها من المناهج ما يفوق آثار التربية الصوفية، وهذه الأسماء كانت حجاباً بين المسلمين؛ فمن قال: الصوفية منبتها فارسي أو يوناني أو هندي، وأنا لا أريد إلا الإسلام، فنقول له التربية الروحية القرآنية هي القاسم المشترك بين المسلمين، فدع عنك هذه الأسماء وقم بالذكر والعبادة والصوم والتبتل كما أمرك الله، فإذا كانت الصوفية تأمر بذكر الله فترة من الزمن، فإن القرآن يأمرنا بالذكر آناء الليل وأطراف النهار، فلنعد إلى مصطلحات القرآن لنجمع الأمة ولنوحد صفوفها.

الصوفية في غابر السنين

حملت الصوفية في عهودها المختلفة ركام الماضي، وأوضار السنين، وتشعبات الأفكار والآراء، وإن الجماعة الإسلامية عليها وفي نطاق التسامح والصبر والحب وسعة الأفق والإقناع، مراعاة ظروف المتصوفين المنحرفين لإعادتهم إلى الصف القرآني بتحليل أوضاعهم وأخذ ما وافق الشريعة،

وإقناعهم بما خالفها ليتركوها، وأما الهجوم عليهم فلا يزيدهم إلا تعنتاً وعنجهية وتعصباً، وهذا لا يفيدنا في عالمنا الإسلامي الكبير لكثرة المؤمنين بطرقهم المختلفة، وهنا يكون دور المربي المسلم المعتمد على القرآن والسنة في توجيه انحراف الصوفيين، وتوجيههم بشكل سليم نحو منهج قرآني نبوي صحيح.

استخدمت الصوفية صفاء النفس في تجميع الطاقات الإسلامية وذلك لأن الحركة الصوفية عملت ضمن منهجها إلى توحيد طوائف المسلمين، فعندما يصفو المسلم المعتقد بمذهب ما فإنه يبدأ بالتنازل عن معتقداته أمام الحق الذي يظهر له، فكان دورها على مر السنين قدرة خلاقة لتصفية الخلافات بين المسلمين، فلا نجد صوفياً يكره إنساناً على غير ملته بل تتسامى روحه إلى درجة النظر إلى الخلق على أنهم عيال الله وأحب الخلق ألطفهم بعياله، فدورها خطير، فلقد جمعت القوى المختلفة تحت ستار تصفية النفس، فالشيخ المكزون السنجاري بتصوفه استطاع تجميع المسلمين حوله من مذاهب مختلفة، وألف بين قلوب المسلمين على اختلاف نزعاتهم الطائفية، وجمعهم في طريقة محبة الله ومحبة رسوله وآل بيته.

والتربية الروحية غاية كبرى من غايات الإسلام، وهي القوة إلى تعميق معاني العقيدة، والوسيلة لاستبطان ظواهر الشريعة، وقد عمل الرسول ﷺ لتربية روحه في الغار، ثم تلاها في مكة بإقامة الصلاة في جوف الليل هو وأصحابه ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ۝١ قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا﴾[1]، وقام الصحابة بمتابعة الطريق المؤدي إلى عمق التربية الروحية مثل أبي ذر وأبي الدرداء وأويس القرني، وعلى رأسهم أبو بكر الصديق، وقام بهذا العلم التابعون مثل الحسن البصري وسفيان الثوري ومالك بن دينار، واستمر القوم في هذا المنحى

---

(١) سورة المزمل: ١-٢.

فصار علماً قائماً بذاته سمِّي بالزهد وأصحابه بالزهاد السالكين، وحاول بعض أعدائه جعله متأثراً بالفلسفة الهندية، وبعضهم قال إنه نقل عن الفلسفة اليونانية، وقيل: هو من آثار اليهودية والمسيحية ومنها الغنوصية التي تظهر في آراء بعض الصوفيين الفلاسفة. وقد رد على ذلك الدكتور عبد الرحمن بدوي[1] يقول: (خلال التلاوة المتواصلة المتأملة للقرآن والحديث، وتحت تأثير الأزمات الاجتماعية أو الفردية، في داخل المجتمع الإسلامي نفسه، نشأت من الداخل الآراء الخاصة بالصوفية الإسلامية).

فالصوفية استنبطوا من ظاهر القرآن وظاهر الأخبار معاني لطيفة باطنة، وحكماً مستطرفة، وأسراراً مذخورة، وهم في مستنبطاتهم مختلفون كاختلاف أهل الظاهر.

وإذا أردنا أمام المد الإسلامي المتصاعد في هذا العصر معالجة انحرافات الطرق الصوفية فلابد لنا من وضع أهداف واضحة، بعد سبر أغوار هذه الطرق، ثم دعوتهم إلى حوار إسلامي عقلاني قرآني نبوي لتصحيح مسار كل ضائع منهم دون الطعن في أعراض الناس، وتكفيرهم وقذفهم بكل أصناف التهم الباطلة التي ربما تكون ناتجة عن أخطاء لفظية لا يعونها، وقلوبهم سليمة في معتقدها.

فالذكر الذي تقوم به بعض الطرق والصياح والقفز أثناء الذكر قد يعترض عليه العديد من الناس، فلنعالج هؤلاء بدعوتهم إلى الحوار الهادىء لنصل إلى الذكر الهادىء الذي فيه فكر وتفكر، وبمجادلة هادئة. وعلى مر الزمن نجد تناقص هذه الحلقات الصاخبة بزيادة النضوج الفكري الروحي العقلاني عند أتباعهم المعاصرين.

---

(١) تاريخ التصوف الإسلامي د. عبد الرحمن بدوي ص ٤٨.

وهذا ما نشاهده في انتقال الكثير من أتباع الصوفيين المنحرفين إلى صوفية قرآنية نبوية بعد نضوج دراستهم الإسلامية الواعية للنصوص الصحيحة في الكتاب والسنة.

وفي استقراء للطرق الصوفية نجد أن المنحرف منها لا ينتشر إلا في مجتمع جاهل مستغل من قبل بعض الشيوخ الذين ينشرون ضلالاتهم وزيفهم، وإزاء هذا الأمر نحتاج إلى دعاة صوفيين علماء يصوبون الأخطاء، ويحللون الواقع، ويرشدون العوام إلى حقائق الإسلام الكلية وبذلك نقضي على هذا الانحراف ونعوضه بمنهج صوفي قرآني نبوي سليم.

* * *

الفرق بين الإسلام والإيمان والإحسان

الفرق بين الإسلام والإيمان والإحسان

الإسلام: هو الاستسلام الظاهري بالقول، وأن تشهد أنه لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، وهو بداية الطريق؛ لأن المسلم هو المستسلم لأمر الله عز وجل، وهو المنطلق الذي يبدأ به الإنسان ليصل إلى حقيقته الفكرية والروحية والعملية. والإسلام عقيدة ومنهج حياة ومجموعة أركان بنتها الشريعة الغراء وهي: ١ـ الشهادتان. ٢ـ الصلاة. ٣ـ الحج. ٤ـ صوم رمضان. ٥ـ الحج إلى البيت لمن استطاع إليه سبيلاً.

والإسلام تشريع كامل للحياة وتنظيم للعلاقات الاجتماعية بين الفرد والمجتمع، وكذلك بين المجتمعات الإنسانية، فهو منهج متكامل روحي واجتماعي ومادي للحياة كلها[1].

والإيمان: هو الانتقال من التسليم اللفظي والعقلي إلى اليقين الروحي والقلبي؛ بل هو الاعتقاد الجازم الذي يلي الاستسلام ويكون بالتنفيذ العملي المقرون بالطاعة والبعد عن المعصية. والإيمان له أركان وهي الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله والقضاء والقدر خيره وشره.

---

(١) من أراد التوسع في هذه المعاني فليراجع كتاب الإسلام ومستقبل الحضارة للدكتور صبحي الصالح، وكتاب روح الإسلام لأمير علي.

والإحسان: هو المرحلة الأخيرة، بل هو ذروة الحقيقة بأن ينتقل المستسلم إلى اليقين ثم إلى الإحساس الشعوري الباطني الروحي والقلبي كأنه يرى الله.

والمسلم الصادق في إسلامه لابد له من مجاهدات روحية وخلوة بالله وذكر وإنابة وصدق في الطلب ليتحول من مرحلة الإسلام إلى الإيمان، ثم إلى الإحسان، والعملية ليست سهلة بسيطة، وإنما تحتاج إلى إرادة صادقة، وزمن يتم فيه تطهير القلب، وتصفية النفس من مشاغلها ومحبوباتها وأهوائها، وعملية تطهير القلب تحتاج إلى مجاهدات، وأذكار وأوراد، وتهجدات وخلوة بالله، وإدامة التفكر في المآل، فإذا حصل المؤمن على هذه، وعرف عظم ما يطلب هان عليه ما يبذل، فالجنة مهرها الأرواح ومعرفة الله أعظم. فماذا يقدم المؤمن ليحصل على الإيمان ثم الإحسان ؟ إذن لابد له من تقديم وقته، وإخلاء قلبه، وإعمال إرادته، ومخالفة نفسه، ومصارعة أهوائه، وشحذ همته، ليصل إلى المطلوب، وتفسر هذا الآية الكريمة: ﴿ لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوٓا۟ إِذَا مَا ٱتَّقَوا۟ وَّءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ثُمَّ ٱتَّقَوا۟ وَّءَامَنُوا۟ ثُمَّ ٱتَّقَوا۟ وَّأَحْسَنُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾[1].

ثم تظهر جلية هذه المعاني في قوله تعالى: ﴿ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ﴾[2] وقد ثبت في صحيح مسلم عن النَّبي ﷺ تفسير الزيادة في قوله: ﴿وزيادة﴾ أن الزيادة هي النظر إلى وجه الله تعالى في الجنة. ويبدأ المؤمن بالمجاهدات ليحقق المقامات، ولينتقل إلى الإحسان، وقد قسمها الطوسي في كتابه اللمع إلى سبعة مقامات، وكل مقام نتيجة لمقام تقدمه وتلك هي: التوبة، والورع، والزهد، والفقر، والصبر، والتوكل،

---

(١) سورة المائدة: ٩٣.

(٢) سورة يونس: ٢٦.

والرضا، ولربما يصل إلى أرقى الأحوال، وهناك فرق بين المقامات والأحوال.

فالمقامات تتأتى بالمجاهدة والسلوك وهي مكتسبة بالنوافل، وأما الأحوال فمواهب إلهية، وحالات روحية لا دخل لاجتهاد الإنسان فيها، كالتأمل والحب، والخوف والرجاء، والأنس والطمأنينة، والمشاهدة واليقين، ولكن لي تعليق على هذا القول الذي بينه ووضحه الطوسي وهو أن الأحوال تكون هبة من الله، ولكن لمن سلك طريق المؤمنين وتفرغ روحياً، واستعد نفسياً. واستقام على هدي الله وسنة رسوله عليه الصلاة والسلام، ودليل ذلك ما جاء في الحديث القدسي: «مازال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته صرت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به...»[1].

والطمأنينة بيّنها الله تعالى بأنها تحصل من ذكر الله ﴿أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾[2]. وهكذا نجد أن التفريق بين الأحوال والمقامات ليس واضحاً وإنما يتم ذلك كله بالإخلاص والصدق مع الله عز وجل، وكما قال الرسول ﷺ للمجاهد: «إن تصدق الله يصدقك».

فالإحسان عبادة في حالة شعورية راقية، والإيمان هو بداية الطريق، والمؤمن لابد له من التقوى لتتحقق فيه: ﴿وَمَن يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ﴾[3]، ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ﴾[4]، ثم إن تحقيق الهداية يكون بالمجاهدة ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾[5]، إذن

---

(١) متفق عليه.
(٢) سورة الرعد: ٢٨.
(٣) سورة التغابن: ١١.
(٤) سورة محمد: ١٧.
(٥) سورة العنكبوت: ٦٩.

مجاهدة النفس هي وسيلة من وسائل التربية الروحية، وهي التي تحقق لصاحبها حقيقة الإيمان ثم الإحسان.

وكما قال الشيخ محمود أبو الفيض المنوفي: (فالإسلام بداية الطريق إلى الله، والإيمان وسطه ودعامته، والإحسان ذراه)[1].

وفي الحديث النبوي الذي روي عن عمر رضي الله تعالى عنه قال: بينما نحن جلوس عند رسول الله ﷺ ذات يوم، إذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب، شديد سواد الشعر، لا يرى عليه أثر السفر، ولا يعرفه منا أحد، حتى جلس إلى النَّبي ﷺ، فأسند ركبتيه إلى ركبتيه، ووضع كفيه على فخذيه، وقال: يا محمد، أخبرني عن الإسلام ؟ فقال رسول الله ﷺ: «الإسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتصوم رمضان، وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلاً»، قال: صدقت، قال: فعجبنا له يسأله ويصدقه، قال: أخبرني عن الإيمان. قال: «أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشره»، قال: صدقت، قال: فأخبرني عن الإحسان. قال: «أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك» وهكذا حتى نهاية الحديث[2].

إذن فالإحسان هو أن يعبد المؤمن ربه في الدنيا على وجه الحضور والمراقبة كأنه يراه بقلبه، وينظر إليه في حال عبادته بعين بصيرته، ويعبده بشريطة الخشية والمراقبة لأنه يراه.

والإحسان هو أعلى مقام المقربين والصديقين، ونهاية طريق السالكين إلى حضرة رب العالمين.

---

(١) الطريق إلى الله: ص ١٢٣.

(٢) رواه البخاري ومسلم وأبو داود والترمذي وابن ماجه.

حَاجتـنا إلى الصُّوفيـة

مُتقَيـدَة بالكتَابِ وَالسُّـنَة

حاجتنا إلى الصوفية
مُتقيدة بالكتاب والسنة

قال الشاعر الهندي: (لقد أظلمت البواطن، فقيض الله رجلاً يجلس في زاوية بعيدة يوقد سراجاً تستضيء به القلوب والنفوس، إن الذي يقرأ القرآن بظهر الغيب، قد فقد الخضور والخشوع، وقد أفلس العلماء)[1].

إن المنكرين على التصوف والذين لا يقبلون الاسم ولا أهله ولا مباحثه ولا الكلام فيه هم معاندون؛ فتسعون بالمئة من الأمة الإسلامية لها صلة بالتصوف، وبأشكال متعددة منه، فإن لم يكن مشتغلاً بباب من أبوابهم فهو تلميذ لمن اشتغل فيه؛ وإنَّ هَدْم فكرة التصوف المنحرف هو شيء جيد ولكن لابد لنا من بديل وهو التربية الروحية القرآنية، ولنلغ اسم التصوف ولنأت باسم التربية أو التزكية.

والتربية الروحية نزعة أصيلة في أعماق النفس البشرية؛ وهي الوسيلة الوحيدة لعلاج النفس من أمراضها الكثيرة.

وعصرنا هو عصر الشهوة والنزوة والمادية، ولا تقابل إلا بالتربية الروحية؛ فالشهوة لا يقابلها المقال وحده، ولابد من الحال، والمادية لا تقابلها الكلمة والخطبة وإنما الشعور والذوق والترقي الإيماني في درجات الكمال.

---

(١) ربانية لا رهبانية ص ٣٦.

والتربية الروحية هي الوسيلة الوحيدة التي يسير المسلم بها على الطريق إلى الله، ومنها الوجل؛ والوجل شعور في أعماق القلب ويتحقق بطهارة القلب ومحبة الله والخوف منه والتضرع والبكاء وذكر الله.

جاء في حديث رسول الله ﷺ أنه قال: «سيخرج قوم في آخر الزمان حدثاء الأسنان سفهاء الأحلام يقولون من قول خير البرية، يقرأون القرآن، لا يجاوز إيمانهم حناجرهم، يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية، فأينما لقيتموهم فاقتلوهم، فإن في قتلهم أجراً لمن قتلهم عند الله يوم القيامة»[1].

هذه الظاهرة المرضية عند المسلم العالم، فكيف تعالج هذه الأمراض؟ لا يمكن تحقيق علاجها إلا بالتربية الروحية.

ومن أروع ما قاله الشاعر جكر مراد آبادي: ما أروع كلمات الخطيب، وما أجمل تعبيره، ولكنني لا أجد في عينيه بريق الحب، ولا أقرأ في وجهه نور الإيمان، وسيما الحب والحنان.[2].

التصوف السلفي:

قال ابن تيمية لتلميذه ابن القيم مرة: (ما يصنع أعدائي بي؟ أنا جنتي وبستاني في صدري، وإن رحت فهي معي لا تفارقني، إن حبسي خلوة، وقتلي شهادة، وإخراجي من بلدي سياحة)[3].

التصوف السلفي يظهر جلياً عند ابن تيمية، فهو مرحلة روحية وليس

---

(١) رواه الشيخان وغيرهم. (وهذا الحديث له ضوابط شرعية، وليس لأحد التصرف على هواه وإنما يتم ضمن أحكام قضائية في المجتمع الإسلامي وذكر للتحذير من النفاق وأمراض العلماء المتفيقهين).

(٢) ربانية لا رهبانية: ص ٤٠.

(٣) الوابل الطيب من الكلم الطيب لابن القيم، ص ٦٢.

غاية في ذاتها، ولذا لم يستغرق في العبادة إلى غاية الكشف ويقول: العبادة اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الباطنة والظاهرة[1]. ويؤكد بأن المجاهدة والعبودية تتجسد في انتقال أحوال المسلم إلى الجهاد في سبيل الله فيقول: (فإذا ما ترك العبد ما يقدر عليه من الجهاد، كان دليلاً على ضعف محبة الله ورسوله في قلبه)[2]. ثم يؤكد أن كمال الإسلام عنده ليس بالإشراقات الروحية والكشف والمشاهدة وإنما: (كمال الإسلام هو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وتمام ذلك الجهاد في سبيل الله)[3].

ولم ينكر ابن تيمية التصوف كمنهج ذوقي، وتفسير وجداني للنصوص، ولكنه لم يوافق على الغلو أولاً، وطغيان المؤثرات الخارجية عليه ثانياً، والمعرفة عند ابن تيمية فطرية قلبية وتظهر هنا بصفة خاصة نزعته الصوفية أو ميله إلى المنهج الصوفي، فإن العبد عندما يعرف ربه يذكره[4] ويجد هذا مبرراً للصوفية عندما يلازمون الذكر لله فإنه يتفق مع الفطرة.

ويختلف مع الغزالي فيقول: (يستفاد من كلامه أن أساس الطريق هي شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله كما قررته غير مرة، وهذا أول الإسلام الذي جعله هو النهاية)[5].

وعند ابن تيمية أن الإيمان يزداد مع الذكر والعلم بالتنزيل فيقول: (كل من كان بالله أعرف، وله أعبد، ودعاؤه له أكثر، وقلبه له أذكر، كان علمه

---

(١) السلوك: ص ١٨٨.
(٢) السلوك: ص ١٩٣.
(٣) السلوك لابن تيمية، ص ١٨٨.
(٤) نقض المنطق ص ٣٥.
(٥) ابن تيمية، مجموعة الفتاوى، ج ٢، ص ٥٧.

الضروري بذلك أقوى وأكمل، فالفطرة مكملة بالفطرة المنزلة)[1].

ولكن ابن تيمية السلفي العالم يضع الخطوط العريضة لأرباب العبادة والتصوف فيقول: (ولهذا كان كثير من أرباب العبادة والتصوف يأمرون بملازمة الذكر، ويجعلون ذلك هو باب الوصول إلى الحق، وهذا حسن إذا ضموا إليه تدبر القرآن والسنة واتباع ذلك، وكثير من أرباب النظر والكلام، يأمرون بالتفكر والنظر ويجعلون ذلك هو الطريق إلى معرفة الحق والنظر الصحيح إذا كان في حق ودليل كما تقدم، فكل من الطريقين فيهما حق لكن يحتاج إلى الحق الذي في الأخرى).

إنه عالم بالله وبشريعته، متقيد بالحق الذي هو الفطرة، التي تزداد وتكمل الشريعة، إنه كلام فيه علم وذوق وفكر وقلب، وذكر وتلاوة. ويركّز على الجوهر، وهي الأمور الباطنة فيقول: (أصل الدين في الحقيقة هو الأمور الباطنة من العلوم والأعمال، وإن الأعمال الظاهرة لا تنفع بدونها)[2].

ويصف المحبة فيقول: (إن المحبة هي أصل كل عمل ديني)[3].

كما يرى أن محبة الأولياء من أوثق عرى الإيمان وأعظم حسنات المتقين[4]، ولا ينسى أن يدلي بدلوه في الفناء ويقسمه إلى ثلاثة أقسام:

١ـ الفناء عن إرادة ما سوى الله.

٢ـ الفناء عن شهود السوى.

٣ـ الفناء الذي هو الضلال المؤدي إلى الحلول والاتحاد.

---

(١) ابن تيمية، نقض المنطق، ص ٣٤.

(٢) ابن تيمية، السلوك، ص ٩.

(٣) ابن تيمية، التحفة العراقية، ص ٤٥.

(٤) ابن تيمية، مجموعة الفتاوي، ج ١٨، ص ٣١٥.

ويأتي بالأدلة للأول والثاني، ويهاجم ويفند آراء القسم الثالث، والذكر عند ابن تيمية هو ذكر الكلام التام، ثم يوسع مفهوم الذكر حتى يقول: (ثم يعلم أن كل ما تكلم به اللسان، وتصوره القلب، مما يقرب إلى الله من تعلم علم وتعليمه، وأمر بمعروف ونهي عن منكر، فهو من ذكر الله).

ولا ننسى كلمة ابن القيم عن الحياة الروحية وتأكيد وجودها، والعمل للحصول عليها في قوله: (إن في الدنيا جنة، لن يدخل جنة الآخرة من لم يدخلها)[1].

ولم يستطع ابن تيمية التخلص من تأثير الصوفية؛ ولكنه أيد ما كان مشروعاً، ونقد وهاجم ما خالف الكتاب والسنة، فكان المثال للصوفي السلفي الحقيقي.

ولا يمكن أن ننسى الذوق الوجداني عند ابن تيمية، وهذا ما يؤكده في قوله: (وهذه الأمور لها أسرار وحقائق لا يشهدها إلا أهل البصائر الإيمانية والمشاهد الإيقانية)[2]، ومعناها حالة الشهود الذي يحصل عليه من زكت نفسه وطهرت روحه وعرجت في معارف راقية.

وابن تيمية بمنطلقه الشرعي يرفض قبول تحليل الشطحات الصوفية التي تخالف النصوص الشرعية، ولذا قام بعملية كبرى حول وحدة الوجود والحلول والاتحاد، وأكد مخالفة هذه للأصول الإسلامية، والذي يقول بوحدة الوجود كافر، ويعتقد المسلم بوحدة الشهود وهو الفناء عن الوجود وأن يشهد أن الفعال الحقيقي هو الله سبحانه وتعالى، وبينه في بحثه للفناء بشكل واسع.

---

(١) ابن القيم، مدارج السالكين، ج ١، ص ٤٥٤.
(٢) ابن تيمية، مجموعة الفتاوي الكبرى، ج ٢، ص ٣٢٤.

وله كلام حول ابن الفارض والحلاج عن حالاتهم الذوقية الخاصة التي يحتفظ بها لنفسه دون التحدث بها لغيره، والتحدث يؤدي إلى الزلل في الاعتقاد، والمغايرة لأصول الشريعة، وتتنافى مع حقائق العقيدة الإسلامية بالله وصفاته.

يقول العز بن عبد السلام في أهمية التصوف:

(ليست الحقيقة بخارجة عن الشريعة؛ بل الحقيقة طافحة بإخلاص القلوب والمعارف والأحوال والعزوم والنيات، فمعرفة أحكام الظاهر معرفة بجليل الشرع، ومعرفة أحكام البواطن معرفة لدقيق الشرع، ولا ينكر شيئاً منها إلا كافر أو فاجر، وقد يتشبه بالقوم من ليس منهم).

* * *

مكانة المتنبّي

٢٣١

مكانة المربي

إن المنهج التربوي يحتم وجود معلم ومتعلم، والسلوك الصوفي يؤكد بشكل قطعي وجود المربي المعلم والمرشد، ويشترط علماء التصوف في هذا المنهج وجود الشيخ المربي الذي سمت روحه إلى درجة الإحسان، وعرجت نفسه في معارج الكمال، وتهذبت أخلاقه، وتنامت قدراته الروحية والعقلية إلى درجة القرب والأنس والطمأنينة الكاملة.

والرسول عليه الصلاة والسلام كانت له وظيفة كبرى بعد التعليم، وهي التزكية، قال تعالى: ﴿كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُوا عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا۟ تَعْلَمُونَ﴾[1].

والمعلم دوره خطير في تزكية النفوس وتطهيرها من عيوبها، وتخليصها من أمراضها، ثم الرقي بالنفس إلى مراحل متقدمة في السلوك الإسلامي الصحيح.

ومكانة المربي هي وراثة للقدوة المحمدية الكاملة، ولذا قال

---

(١) سورة البقرة: ١٥١.

الرسول ﷺ: «العلماء ورثة الأنبياء»[1].

والشيخ العارف بالله عز وجل، والعالم بكتابه، والمقتدي بسنة نبيه عليه الصلاة والسلام، هو الصادق الذي لابد لنا من الحياة معه، والاسترشاد بمواعظه، والتأدب في مجلسه، وحسن الاستماع له، والعمل بالوصايا التي يأمر المريد بها، وخاصة إن كانت متقيدة بالدليل الشرعي القاطع.

وهم أولياء الله الذين قال عنهم في كتابه العزيز: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۝٦٢ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ۝٦٣ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾[2].

وقد أمر الله تعالى المسلمين أن يعيشوا مع الصادقين، قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾[3].

والصادقون في كتاب الله هم كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ﴾[4].

ولذا نجد أن حتمية وجود المربي في العملية التربوية الروحية، والسلوك الإيماني، والتزكية النفسية هو مطلوب شرعاً وعقلاً وعملياً.

والدليل الشرعي لأهمية المربي والمعلم والمرشد هو قول الله تعالى: ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾[5].

---

(١) متفق عليه.
(٢) سورة يونس: ٦٢-٦٤.
(٣) سورة التوبة: ١١٩.
(٤) سورة الحجرات: ١٥.
(٥) سورة التوبة: ١٢٢.

فهؤلاء الذين نفروا ليتفقهوا في الدين، وليتعمقوا في السلوك التربوي السليم، والذين تكاملت صفاتهم النفسية، وازداد قربهم إلى الله تعالى سلوكاً وفكراً ونضوجاً، فهم الذين يكونون قادرين على تزكية النفوس، وتطهيرها من أمراضها المتعددة.

وفي هذا البحث الشائك جرى حوار طويل بين العلماء الصوفيين والفقهاء، ونسرد قصة رواها الشيخ أحمد الزروق في موضوع الشيوخ:

«وقد تشاجر فقراء الأندلس من المتأخرين في الاكتفاء بالكتب عن المشايخ، فكتبوا للبلاد، فكل أجاب على حسب فتحه، وجملة الأجوبة دائرة على ثلاثة (أولاها) النظر للمشايخ: فشيخ التعليم تكفي عنه الكتب للبيب حاذق يعرف موارد العلم، ولشيخ التربية تكفي عنه الصحبة لذي دين عاقل ناضج.

قال شارح بداية السلوك: وقلَّ أن يوجد لغلبة الهوى، وشيخ الترقية يكفي عنه اللقاء والتبرك وأخذ كل ذلك من وجه واحد، يعني أن أخذ ذلك عن الشيخ في الأوجه الثلاثة أتم للنجاح وأبلغ للمراد.

(ثانيها) النظر لحال الطالب، فالبليد لابد من شيخ يربيه، واللبيب تكفي الكتب في ترقيته، لكنه لا يسلم من رعونة نفسه، وإن وصل لابتلاء العبد برؤية نفسه.

(ثالثها) النظر للمجاهدات؛ فمجاهدة التقوى لا تحتاج إلى شيخ لبيانها، وعمومها والاستقامة تحتاج للشيخ في بيان الأصلح منها، وقد يكتفي عنه اللبيب بالكتب، ومجاهدة الكشف والترقية لابد فيها من شيخ يرجع إليه في فتوحها كرجوعه عليه السلام في عرضه على ورقة بن نوفل لعلمه بأخبار النبوة ومبادىء ظهورها حين فاجأه الحق، وهذه الطريقة قريبة

من الأولى والسنة معها والله تعالى أعلم.[1].

فالشيخ العارف بالله تعالى يختصر لك طريق السلوك فيعطيك خلاصة ما وصل إليه، ويعينك على كشف خفايا نفسك وأمراضها لتتخلص منها، ولا ريب في أنك بصحبة الشيخ تأخذ منه حالاً ترتقي به ولذا قيل: لا تصاحب من لا ينهضك حاله، ويدلك على الله مقاله.

وقصة نبي الله موسى عليه السلام مع المعلم قد وردت بالتفصيل، وترشد السالكين إلى درب العلم اللدني، قال الله تعالى عن المعلم الذي اتخذه موسى عليه السلام: ﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴿٦٥﴾ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴿٦٦﴾ قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٦٧﴾ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا ﴿٦٨﴾ قَالَ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِى لَكَ أَمْرًا﴾[2].

وهذا دليل شرعي على حاجة الناس إلى المعلم والمربي، الذي علم ما لم يعلموا، وفقه ما لم يفقهوا.

وإن الارتباط الروحي بين الشيخ والمريد تولد الطاقة التربوية للعروج بالمريد السالك في مقامات وأحوال السلوك الروحي الرفيع.

الرابطة:

إن ارتباط المتعلم المريد بشيخه، هذا الارتباط الروحي هو من قبيل التخاطر الذي ثبت علمياً في كتاب الحاسة السادسة، فإن الشيخ العارف بالله؛ العالم بالكتاب والسنة، المطلع على المعرفة الإلهية، عندما تتم عملية

---

(١) شرح بداية السلوك، ص ٢٤١.

(٢) سورة الكهف: ٦٥ـ ٦٩.

التخاطر بينه وبين السالك معه في طريق العزلة، فإن الأنوار التي تصب في جنباته، والاهتمامات الروحية التي يدور في فلكها؛ والتجليات الإلهية التي تهبط على قلبه، تنساب من قلبه إلى قلب السالك، ومن روحه إلى روحه، في عملية التخاطر العلمية التي ثبتت في تخاطر الروس بين سيبريا وموسكو عن طريق الأجهزة العلمية، ولذا فإن في الروح بث وقدرة على الالتقاط وتتفاعل مع القدرة التي تبث هذا الإشعاع. فأثر الارتباط بَيِّنٌ واضح، وانعكاس التأثير دليل على صدق وعمق فكرة الرابطة الروحية بين المتعلم والمعلم، وبين العارف بالله والمريد، وأما الدليل الشرعي فهو الحب في الله، وآيات وأحاديث الحب في الله كثيرة، ثم إن الرسول ﷺ كان يقول: «إن لكم إخوة ما صعدتم جبلاً، ولا نزلتم وادياً، إلا كانوا معكم»، ولربما أشير في بعض أقواله إلى أويس القرني رضي الله عنه.

* * *

هجوم المتصوفين على الشطط الصوفي

هجوم المتصوفين على الشطط الصوفي

قال ابن فورك رحمه الله: (الغلط في إدخال ألف كافر بشبهة إسلامه، ولا الغلط في إخراج مؤمن واحد بشبهة ظهرت منه)[1].

وطريق الإيمان مبني على ترجيح الظن الحسن، والأخذ بالأعذار، ولذا فعلينا أن ننظر إلى هؤلاء الأعلام من الصوفيين الذي أسهموا في التراث الإسلامي.

كالغزالي في الإحياء والمنقذ والاقتصاد في الاعتقاد، والمحاسبي في محاسبة النفس.

وابن الحاج في المدخل.

وابن العربي في الوصايا.

والقشيري في رسالته.

والجنيد وعبد القادر الجيلاني وابن الفارض والسبكي.

والسهلي في طبقاته.

وأبي نعيم في حلية الأولياء.

---

(١) قواعد التصوف ص/ ٥١.

وسَرِيُّ السقطي وإبراهيم بن الأدهم والشبلي والحسن البصري وسفيان الثوري والسهروردي.

كل هؤلاء الأعلام لهم سهم مبارك في إيجاد الأسس التربوية الروحية، ولا يمكن التغاضي عن سقوط البعض في الخطأ، لأنهم ليسوا معصومين، ولذا نجد بعضهم يحذر من الأخطاء التي وقع بها بعض الذين أصابهم الشطط. وإننا لنجد في كتابات هؤلاء الصوفيين السلفيين أمثال الهروي والمحاسبي الذيْن جعلهما الشهرستاني في عداد السلف. ونستطيع تسمية تصوفهم التصوف السلفي أو التربية الروحية القرآنية. فيقول الهروي في كتابه (منازل السائرين إلى رب العالمين):

(إن العامة من علماء هذه الطائفة اتفقوا على أن النهايات لا تصح إلا بتصحيح البدايات، كما أن الأبنية لا تقوم إلا على الأساسات، وتصحيح البدايات هو إقامة الأمر على مشاهدة الإخلاص، ومتابعة السنة).

وينتقد الهروي لكونه صاحب اتجاه سلفي متقيد بالكتاب والسنة فيقول: ومنهم (يعني الصوفيين المنحرفين) من لم يميز مقامات الخاصة وضرورات العامة، ومنهم من عد شطح المغلوب مقاماً، وجعل لبوح الواجد (صاحب المواجيد الذوقية) ورمز المتمكن (صاحب المقام في التربية الروحية والإشراقات النفسية) سبباً عاماً وأكثرهم لم ينطق عن الدرجات[1].

ويؤثر الهروي مقام الرضا الذي تمثل به الصحابة الكرام وهو مقام السكينة المانعة من الشطح الفاحش، ويعني الشطح الفاحش كالذي نقل عن أبي يزيد ونحوه، بخلاف الجنيد وسهل التستري وأمثالهما. فإنهم لما كانت

---

(١) منازل السالكين ص/ ٣.

لهم هذه السكينة لم تصدر عنهم الشطحات؛ ولا ريب أن الشطح سببه عدم السكينة، فإنها إذا استقرت في القلب منعته من الشطح وأسبابه[1].

وبذلك يصل الهروي إلى نفي أن يكون البسطامي أو الحلاج من الموصوفين بالولاية لما أثر عنهما من شطحات فاحشة.

وقال القشيري في النقد اللاذع للتصوف المنحرف: (وكل تصوف لا يقارنه التنظيف والتعفف فهو مخرقة وتكلف، وكل باطن يخالفه ظاهر باطل لا باطن، وكل توحيد لا يصححه الكتاب والسنة فهو تلحيد لا توحيد، وكل معرفة لا يقارنها ورع واستقامة فهي مخرفة لا معرفة)[2].

إن الشطط الذي انغمست فيه بعض الشخصيات الصوفية في وحدة الوجود والحلول والاتحاد ظهر من خلاله تأثرهم بالأفكار الأفلاطونية المحدثة والغنوصية في صورة إسلامية، وإنني لأوقن بأن هذا السلوك الذي ظهر فيه كبار الشخصيات الصوفية يدعونا حثيثاً للتقيد بالقرآن والسنة والتمكن من أسلوب القرآن في التربية الروحية، متمسكين به، ومبتعدين عن كل هذه الأسماء والتسميات من صوفية وعشق إلهي وغيره، ليسعنا ما وسع نبينا محمداً ﷺ وأصحابه، ولا يمكن أن نتهم هؤلاء بالكفر والزندقة مباشرة، وعلينا أن نحتاط في تكفير المسلمين، وإنما أن نرجئهم إلى الله عز وجل لعلهم قد تابوا في آخر حياتهم عندما بلغوا كمال المعرفة ونضج السلوك، والتسامي الرفيع.

فمن هو أحق بالاتباع الرسول ﷺ أم هؤلاء الذين جاءوا بأمور لا يرضاها ظاهر النص من كتاب أو سنة. فإذا كان هؤلاء كأمثال ابن عربي

---

(١) مدارج السالكين ج/ ٣ ص/ ٥١٢.
(٢) الرسائل التبشيرية ص/ ٦١ـ٦٢.

وابن الفارض والجيلي، وأبي يزيد البسطامي أعلم وأرقى حالاً من رسول الله فلنسمهم رسلاً وما هم برسل، فإن لم يسعهم ما وسع الرسول ﷺ من معرفة وحال وسلوك وإشراق فإننا نصل بهذه الافتراءات إلى نهاية لا خير فيها وهذه دعوة الشيخ الصوفي المنصف إلى الرجوع إلى كتاب الله وسنة رسوله، ونبذ هذه التسميات الصوفية والتصوف. فلنعد إلى التزكية القرآنية المحمدية، فالعودة إليها أصوب ولكي لا نكون كمن وصفهم القرآن: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ﴾[1].

قال ابن عباس لمن جادله بقول نسبه إلى العمرين:

يوشك أن ينزل الله عليكم ناراً من السماء فتحرقكم، أأقول لكم قال الله وتقولون لي: قال أبو بكر، وقال عمر.

كيف تقبل قول الجيلي:

إذا كنت في حكم الشريعة عاصياً فإني في علم الحقيقة طائع

وتقديس الأولياء إلى درجة الألوهية، فهم يظنون بهم أنهم يحيون ويميتون ويُشفون ويرزقون كما كانت الجاهلية تعتقد بالأصنام.

وهل يقبل قول البسطامي: (تالله إن لوائي أعظم من لواء محمد)[2] وقوله: (لأن تراني مرة، خير لك من أن ترى ربك ألف مرة)[3].

وما رأيك في قول الدسوقي: (أنا بيدي أبواب النار أغلقتها وبيدي جنة الفردوس فتحتها، من زارني أسكنته جنة الفردوس وما كان ولي متصلاً بالله

---

(١) سورة البقرة: ١٦٦.
(٢) لطائف المنن ص/ ١٢٥.
(٣) لطائف المنن.

إلا وهو يناجي ربه كما كان موسى يناجي ربه)[1].

إن الإسلام وجد صافياً من العقد، سهلاً من الإشكالات المستعصية. والمسلم غير مأمور أن يغوص في كل هذه الأغوار التي يتيه فيها الصبر ولا يصل بها إلى قرار. ولا بأس إن عاشها بعض الأولياء لأنفسهم. دون الخوض بها، لأنها لا تنفع ولا تضر، وهي حالة فردية خاصة. وجرى نقاش مع بعض الأخوة فقال لي: أنت تشدد النكير على ابن عربي فقلت له: إن شيخنا يدعو إلى العودة الكاملة إلى الكتاب والسنة فما وافق الكتاب والسنة فهو تربية روحية قرآنية نقر بها، وما خالفها فنحن لسنا بحاجة إلى اتباعه ولا نكفره، وإنما لسنا مجبرين بالدفاع عنه؛ ثم جاء الوقت لتجرى المحاورة أمام الشيخ المربي فقلت إن بعض الأخوة يظنون أن دعوتك إلى نبذ كلمة تصوف ما هي إلا سياسة في الدعوة ولسيت حقيقة علمية تنطلق منها؛ ومرتكزاً أساساً من أسس دعوتك فقال: يابني إن الدعوة إلى الكتاب والسنة هي عقيدتي ولست مجبراً على قولها؛ وإنما هي الحقيقة التي ندين بها، وإن الذين أدخلوا الفلسفة لتبرير أفكارهم ومصطلحاتهم الصوفية لسنا مجبرين في الدفاع عنهم؛ وإنما ندافع عن آيات الله وسنة رسوله. فما رأيك يا أخي المؤمن في قول أحد العارفين[2] (خضنا بحراً وقف الأنبياء بساحله)؟ وفسرها أحد المعاصرين الذائقين أي على الساحل المقابل لهذا البحر[3].

وقال محمد أبو الفيض المنوفي:

وكان من أمثال الحلاج من بالغوا مبالغة قلت أو كثرت؛ وكلهم يرمي إلى أن يقيم التصوف الإسلامي على دعائم فلسفية أو فارسية وهندية، أو

---

(١) الطبقات للشعراني ترجمة الدسوقي.

(٢) جواهر المعاني ج/ ٢ ص/ ٦٣.

(٣) فسرها الشيخ صالح السقا المدرس الديني في مساجد دمشق.

يونانية، ولم يراعوا أن التصوف الإسلامي الخالص أصلاً وفرعاً سليم في ذاته، صحيح في نزعته، لا يقبل إلاّ أفكاراً إسلامية سليمة صحيحة[1].

وابن عربي يقر ويعترف بأنه في حيرة وقلق فيقول: (فالأمر حيرة، والحيرة قلق، والحركة حياة الخ)[2].

كان هذا في مرحلة من مراحل سلوكه في التربية وإنما تكامل إيمانه فيما بعد، وبلغ درجة الكمال، واعتذر عنه الذهبي في ميزان الاعتدال وهو ناقد الرجال الممتاز قال: (كان ابن العربي عالماً بالآثار والفلسفة، قوي المشاركة في العلوم).

وقولي أنا فيه أنه يجوز أن يكون من الأولياء الذين اجتذبهم الحق إلى جنابه عند الموت وختم له بالحسنى[3].

ولذا فالجنيد سيد هذه الطريقة، وعميد علمائها قال:

من باح بالسر كان القتل شيمته بين الرجال ولم يؤخذ له الثأر

وقال الجنيد عن بعض المتصوفة الذين قالوا بسقوط التكاليف، وشطحوا:

(إن الذي يسرق ويزني أحسن حالاً من الذي يقول هذا). وهو عندي عظيم. إي إن هذا الإفتراء هو أمر عظيم الخطر.

ونجد الغزالي يصف مذهب الحلول تارة بأنه (اعتقاده خطأ محض وسفاهة صرفة)[4] ويقول عن المتصوفة: (ما أغلب الغرور عليهم والمغترون

---

(١) أبو الفيض المنوفي في كتابه (معالم الطريق إلى الله).
(٢) فصوص الحكم ص/ ٢٠١.
(٣) ميزان الاعتدال ج/ ٣ ص/ ١٠٩.
(٤) معراج السالكين ص/ ٧١.

منهم فرق كثيرة)[1] وقال أبو علي الجوزجاني معترضاً على بعض السالكين: (كن صاحب الاستقامة لا طالب الكرامة، فإن نفسك متحركة في طلب الكرامة، وربك يطالبك بالاستقامة)[2].

* * *

(١) الإحياء ج/٤ ص/٢٠٥.
(٢) الرسالة القشيرية ص/١٦١.

الإمام أبو حامد الغزالي
ورأيه في التصوف

الإمام أبو حامد الغزالي
ورأيه في التصوف

يقول الإمام الغزالي في كتابه المنقذ من الضلال بعد أن فرغ من علوم الشريعة بكتاب الأربعين، وعلوم الفلسفة القديمة بكتاب مقاصد الفلاسفة، وكذلك التهافت، يقول واصفاً التصوف والصوفية: ثم إني لما فرغت من هذه العلوم؛ أقبلت بهمتي على طريق الصوفية، وعلمت أن طريقهم إنما يتم بعلم وعمل، وكان حاصل علمهم قطع عقبات النفس والتنزه عن أخلاقها المذمومة، وصفاتها الخبيثة حتى يتوصل بذلك إلى تخلية للقلب من غير الله تعالى، وتحليته بذكر الله؛ وكان حينئذ العلم أيسر علي من العمل، فابتدأت بتحصيل علمهم من مطالعة كتبهم مثل قوت القلوب لأبي طالب المكي رحمه الله، وكتب الحارث المحاسبي والمتفرقات المأثورة عن الجنيد والشبلي وأبي يزيد البسطامي وغير ذلك من كلام مشايخهم، حتى اطلعت على كنه مقاصدهم العلمية، وحصلت على ما يمكن أن يحصل المرء من طريقتهم بالتعليم والسماع، فظهر لي أن أخص خصائصهم لا يمكن الوصول إليه بمجرد العلم، بل بالذوق والحال، وتبدل الصفات؛ فكم من فرق بين أن يعلم حد الصحة وحد الشبع من لم يكن صحيحاً وشبعاناً، وبين أن يعرف حد السكر، وأنه عبارة عن حالة تحصل من استيلاء أبخرة تتصاعد من المعدة على معادن الفكر وبين أن يكون سكران؛ بل السكران لا يعرف

حد العلم بالسكر وهو سكران لأنه واقع في حال السكر ذوقاً ووجداناً، والصاحي يعلم حدّ السكر وأركانه علماً، وما معه من السكر شيء، والطبيب في حالة المرض يعرف حد الصحة وأسبابها وأدويتها، وهو فاقد للصحة وأسبابها وأدويتها، وهو فاقد للصحة نفسها؛ فكذلك الفرق بين أن تعلم حقيقة الزهد وشروطه وأسبابه، وبين أن يكون حالك الزهد وعزوف النفس عن الدنيا ذوقاً وحالاً؛ فعلمت يقيناً أنهم أرباب أحوال لا أصحاب أقوال، وأن ما يمكن تحصيله بطريق العلم قد حصلته، ولم يبق إلا ما لا سبيل إليه بالسماع والتعليم بل بالذوق والسلوك، وكان قد حصل معي من العلوم التي مارستها، والمسالك التي سلكتها في التفتيش عن صنفي العلوم الشرعية والعقلية إيمان يقيني بالله تعالى وبالنبوة واليوم الآخر.

فهذه الأصول الثلاثة عن الإيمان كانت قد رسخت في نفسي لا بدليل معين مجرد، بل بأسباب وقرائن وتجارب لا تدخل تحت الحصر تفاصيلها، وكان قد ظهر عندي أنه لا مطمع لي في سعادتي الأخروية إلا بالتقوى وكف النفس عن الهوى، وأن رأس ذلك كله قطع علائق القلب من الدنيا، بالتجافي عن دار الغرور والإنابة إلى دار الخلود والإقبال بكنه الهمة على الله تعالى إلى أن قال:

فآثرت العزلة حرصاً على الخلوة وتصفية القلب بالذكر، وكانت حوادث الزمان ومهمات العيال وضرورات المعاش تغير وجه المراد وتشوش صفوة الخلوة، وكان الحال يصفو إلا في أوقات متفرقة، لكني مع ذلك كنت لا أقطع طمعي منها فتدفعني عنها العوائق وأعود إليها.

ودمت على ذلك مقدار عشر سنين، وانكشف لي في أثناء هذه الخلوات أمور لا يمكن إحصاؤها واستقصاؤها. والقدر الذي أذكره لينتفع به هو أني علمت يقيناً أن الصوفية هم السالكون لطريق الله تعالى، وأن سيرتهم أحسن

السير وطريقهم أصوب الطرق وأخلاقهم أزكى الأخلاق؛ بل لو جمع عقل العقلاء؛ وحكمة الحكماء وعلم الواقفين على أسرار الشرع من العلماء ليغيروا شيئاً من سيرهم وأخلاقهم، ويبدلوه بما هو خير منه لم يجدوا إلى ذلك سبيلاً، وإن جميع حركاتهم وسكناتهم في ظاهرهم وباطنهم مقتبسة من نور مشكاة النبوة، وليس وراء نور النبوة على وجه الأرض نور يستضاء به، فأيقنت أنهم الفرقة الناجية.

وماذا يقول القائلون في طريقة، طهارتها ـ وهي أول شروطها ـ تطهير القلب بالكلية عما سوى الله تعالى وعمادها ومفتاحها ـ الجاري منها مجرى الإحرام في الصلاة ـ استغراق القلب بالكلية بذكر الله. وآخرها الفناء بالكلية في الله![1].

* * *

(١) المنقذ من الضلال تحقيق الدكتور عبد الرحيم محمود ص ١٣٨ـ١٤٥.

أثر رجال التربية الروحية
في نشر الدعوة الإسلامية

أثر رجال التربية الروحية في نشر الدعوة الإسلامية

رجال التربية الروحية هم هداة الأمة، وشمس هدايتها، وإنهم الروح المتوقدة الثائرة التي لا تعرف الهدوء والسكينة، لأنهم عرفوا ربهم، فأحبوه؛ ومحبة الله قوة داخلية تحرك المؤمن حتى يعرّف الناس بالله تعالى.

والدلالة على الله هي التي تطفىء حرقتهم وأنينهم لأنهم يُعرَّفون الناس بما يحبون ويعبدون ويعظمون ويقدسون.

ولذا نجد أن انتشار الدعوة في جنوب شرقي آسية، وفي إفريقية كان على يد الدعاة الصوفيين. الذين تزكت أرواحهم، وطهرت قلوبهم.

والدعوة مشقة وتعب، وصبر وأناة، تحمل وإيثار، بذل وعطاء ولا يمكن أن يتحملها إلا من عرف ربه، وأحبه من أعماق قلبه، وطهرت نفسه وتزكت طباعه، ليستمر في هذا الميدان الكبير.

التربية الروحية هي المنطلق، وهي الوقود لاستمرار الداعي في صبره وتحمله. والسلوك التربوي هو المنهج الذي يمد الدعاة حتى يصبحوا قدوة. فعليهم تقديم المجاهدة، ومحو الصفات المذمومة وقطع العلائق كلها، والإقبال بكنه الهمة على الله تعالى.

وعندها يتولى الله أمر القلب، فإذا تولاه فاضت عليه الرحمة وأشرق النور في جنباته وانشرح الصدر، وانكشف سر الملكوت وانقشع عن القلب الحجاب، وتلألأت حقائق الأمور الإلهية ﴿والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا﴾ وعندها يستطيع أن ينشر فكره ودعوته فيمن حوله لأنه يؤثر ولا يتأثر. وإن المتتبع لانتشار الدعوة الإسلامية في جنوب شرق آسيا وفي إفريقية ليرى أثر التصوف واضحاً وأنهم بدأوا حيث توقف الفتح الإسلامي آنذاك.

الشهادة والتصوف

وعندما يتحقق السالك عن طريق استغراق القلب بذكر الله يبلغ مرحلة الوصول إلى الانكشاف القلبي لهذا اللفظ. واللفظ إذا لم يتضمن الحقيقة فهو لا يؤدي غرضه من وجوده كحقيقة الشهادة؛ وذلك لأنها يقين وعلم وحب وخوف وجلال لصاحب الشهادة فإذا قلت أشهد أن لا إله إلا الله ثم لم تتحول إلى سلوك وطاعات وأذواق ومواجيد فلن تحقق هذه الشهادة. غرضها الكلي في تكوين المسلم. فالغزالي يهتم بالحقيقة وابن تيمية يهتم بالمظاهر اللفظية[1].

* * *

(١) ابن تيمية والتصوف ص/ ٣٣٢ للدكتور مصطفى حلمي.